الموضوع: نشأة علم البلاغة والمؤثرات فيه:

ترتبط (البلاغة العربية) عند ذكرها بعلومها الثلاثة المعروفة لدينا: علم المعاني، علم البيان، علم البديع، وقد يتبادر إلى الذهن أنّ هذه العلوم الثلاثة البلاغيّة قد نشأ كلّ واحد منها مستقلاً عن الآخر بمباحثه ونظريّاته ولكنّ الواقع غير ذلك، فقد نشأت متداخلة مع بعضها بعضاً.

والواقع أنّ البلاغة العربيّة مرّت بفترة زمنيّة طويلة من التطوّر قبل أن تصل إلى ما وصلت إليه من حالة الثبات والاستقرار، فقد نشأت في بداية القرن الثالث الهجري، وكانت ملامحها في البداية بسيطة ومتواضعة وفي الوقت نفسه تابعة للعلوم الأخرى، وفي نهاية الأمر تبلّورت هذه الملامح واتّضحت معالمها وأصبحت تشكّل عِلماً مستقلاً له مؤلفاته التي تتبنى القضايا الخاصة به وكان العلماء يطلقون عليها مصطلح (البيان) من باب التوسّع.

وقد مرّت البلاغة خلال هذه الفترة بثلاث مراحل لكن كان من الصعوبة تحديد بداية كلّ مرحلة بشكل دقيق ونهايتها؛ مما أدّى إلى تداخلها مع بعضها بعضاً إلى الحدّ الذي جعل بداية كلّ مرحلة من المراحل تختلط بنهاية المرحلة التي سبقتها، وأحياناً نجد في واحدة منها بعض المؤلفات التي تندرج في سمات المرحلة التي سبقتها، وعلى الرغم من هذا يبقى لكلّ مرحلة خصائصها العامة الرئيسية ونتاجها العلمي الواسع، ونوجز هذه المراحل كالتالي:

– **مرحلة النشأة على هامش العلوم الأخرى:** في هذه المرحلة لم تكن ملامح البلاغة واضحة تماماً، ولم يكن لها القدرة على تبني مسائل وقضايا كاملة، إنمّا كانت عبارة عن ملاحظات وأفكار منتشرة داخل مصنفات العلوم الأخرى التي سبقتها في النشأة.

– **مرحلة التكامل المشترك:** في هذه المرحلة أخذت البلاغة شكلاً آخر حيث أصبحت الأفكار والملاحظات التي رافقت المرحلة الأولى تنضجّ وتنمو وتتعمّق في ثنايا كتب العلوم الأخرى، لتتحوّل بعد ذلك إلى فصول كاملة، لكنها لا زالت مختلطة بهذه المؤلفات ولم يكن لها كتبٌ خاصة بها.

– **مرحلة الاستقرار والتفرّد:** هي المرحلة الأخيرة وفيها اتخذت البلاغة صيغة محددّة اتسمّت بوضوح المعالم وبشكل نهائي؛ حيث أصبحت عِلّماً مستقلاً له مؤلفاته الخاصّة، وبهذا استطاعت البلاغة التحرّر والانفكاك من ثنايا مؤلفات العلوم الأخرى.

- البلاغة عبر العصور:

نشأت الملاحظات البلاغيّة عند البلاغيّين منذ العصر الجاهليّ، فقد اشتهر العرب بفصاحة اللسان وبلاغة التعبير، والقدرة العالية على اختيار الألفاظ الدقيقة البعيدة عن التعّقيد، ولم يكتسب العرب هذه الفنون من علم تعلّموه وإنّما جاءت هذه الفنون الأدبيّة من الفطرة التي نشأوا عليها، وقد اتصفت هذه الفطرة بذائقة فنيّة كان لها القدرة على تمييز الكلام ونقد جيّده من رديئه؛ مما أوجد عندهم ملاحظات نقديّة على البعض من الشعراء، من أمثلة ما ورد في كتب الأدب من أنّ سوق عكاظ كان خير موقعٍ لتجمّع الشعراء وعرض نتاجهم الأدبيّ، وكان الحكم على تلك الأشعار الشاعر النابغة الذّبياني الذي كان ينصب له في السوق قبّة حمراء بحيث يتوافد إليه الشعراء، وينشدون أشعارهم بين يديه، فيحكم ويقول كلمته الفصل فيها، ثمّ ينتشر حكمه بين الناس ولا يستطيع أحدٌ بعد ذلك من معارضته، وقيل إنّ الأعشى جاءه مرةً فأنشد عليه أشعاره فقضى له بحسنها، ثمّ أتى من بعده شعراء آخرون، وكان منهم حسان بن ثابت والخنساء التي أنشدت قصيدة في رثاء أخيها، فأُعجب النابغة بشعرها وامتدحه بقوله إنّها أفضل شعراء العرب؛ مما أثار غضب حسان بن الثابت، وردّ على النابغة بأنّه أشعر منه ومن أبيه، ودار جدالٌ بينهما استشهد خلاله حسان بن ثابت ببيتيْن من شعره قائلاً:

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعنَ بالضُّحى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرن مِنْ نجْدَةٍ دَما

وَلَدْنا بَني الْعَنْقاءِ وَابْنَيْ مُحَرِّقٍ فَأَكْرِمْ بِنَا خَالاً وَاكْرِمْ بِنَا أبْنَمَا

عند ذلك أقرّ له النابغة بشاعريّته، لكنّه انتقد قوله: "يلمعن بالضحى" وبيّن له لو أنّه قال: "يبرقن بالدجى" لكان ذلك أكثر بلاغةٍ، كما انتقد قوله: "يقطرن من نجدة دماً" ووضّح له لو كان قوله: "يجرين" لكان أفضل في تبيان انصباب الدم، وهذا يدلّ على أنّ الشعراء الجاهليين كانوا يراعون في نقدّهم القصيدة كاملةً، ويراعون أيضاً النتاج الشعري الكامل للشاعر، وما يرتبط به من مقام وما يلائمه من كلامٍ، إضافةً إلى الانسجام التام في الوزن وصحة المعنى.

بعد الإسلام ظهرت عوامل عديدة أدّت إلى الاعتناء بصياغة الكلام، وإظهار المعاني والتراكيب بصورة جميلة وجذّابة، وكان أهم هذه العوامل: نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد (عليه السلام) الذي بدأ بتلاوة آياته على مسامع الصحابة الكرام الذين أخذوا يحفظونها عن ظهر قلب، وكان لهذه الآيات الأثر البالغ في نفوسهم، ورقّة أحاسيسهم، وتسامي أذواقهم، وكانوا قد انبهروا ببلاغة القرآن الكريم ووجدوا أنفسهم عاجزين عن الإتيان بمثله، فأخذوا يتعرّفون على جماليات خصائصه ومظاهر نظمه، أمّا كفار قريش فقد أنكروه وادّعوا تارةً أنّه شعر، وتارةً أخرى بأنّه سحر رغم وقعه

الكبير في قلوبهم، وكان أيضاً لأحاديث الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– التي كانت تتردّد على مسامع الناس دور عظيم في صياغة الكلام وجماليّته، فنشأت ملاحظات جديدة في نقد صياغة الكلام وبلاغته، نمت الملاحظات البلاغيّة وزادت لأسباب شتّى، منها تحضّر العرب واستقرارهم في المدن والأقطار المفتوحة، ونهضتهم العقليّة، ثمّ الجدل الشديد الذي قام بين الفرق الدينيّة المختلفة في شؤون العقيدة والسياسة، فكان طبيعيّاً أن تكثر الملاحظات البيانيّة والنقديّة، وأن تتطوّر الخطابة وتتنوّع أساليبها بسبب طبيعة المجتمع، كما ساهم انتقال العرب للإقامة في المدن إلى وجود أسواق أدبيّة، كسوق عكاظ في الجاهليّة، وبدأ تدوين علم الدراسات البلاغيّة التي قامت على أسس الملاحظات النقديّة، وكان أوّل من بدأ بالتأليف أبو عبيدة بن المثنى (ت٢١٠هـ) في كتابه "مجاز القرآن"، ثمّ سار على دربه علماء البلاغة الآخرين في تأليف كتب في صور الاستعارة والتشبيه والكناية. أمّا علم المعاني والبيان فقد كتب في مسائله مؤلفون عدّة، كان أبرزهم: سيبويه، والجاحظ (ت٢٥٥هـ) في كتابه "البيان والتبيين"، وأبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) في (كتاب الصناعتيْن)، وعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١ أو ٤٧٤هـ)، الذي كان له كتابان، وهما: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، أمّا علم البديع فكان أول من كتب فيه عبد الله بن المعتز، ثم قدامة بن جعفر، وابن رشيق (ت٤٥٦هـ) في كتابه "العمدة".

وقد استقرّ علم البلاغة على يديّ أبي يعقوب السكاكي (ت٦٢٦هـ) ومدرسته، ولم يطرأ أي تغيير أو تطوّر عليه منذ بداية القرن السابع الهجري سوى استقلال (علم البديع) عن علميّ المعاني والبيان على يد بدر الدين بن مالك (ت٦٨٦هـ)، وبذلك استقرّت علوم البلاغة الثلاثة، وهي: علم البيان، وعلم المعاني، وعلم البديع، وأيضاً الفنون الأخرى التي تفرّعت عن هذه العلوم، إضافة إلى مناهج البحث البلاغي والأساليب البلاغيّة التي كانت تنهج النهج نفسه الذي أسسه السكاكي وسار عليه تلاميذه من بعده، ومن الجدير بالذكر أنّ التطوّر الوحيد الذي طرأ على علوم البلاغة في تلك الفترة هو استحداث فنون أخرى من الفنون التي تنتمي إلى علوم البلاغة الثلاثة، وخاصة علم البديع الذي نتجّ عنه فروع عدّة؛ وبذلك استقرّت علوم البلاغة العربية لتصبح متضمّنة ثلاثة علوم.

وبعد ...فهذا عرض لنشأة علم البلاغة وتطوّره منذ بدأ في العصر الجاهلي على صورة ملاحظات بيانية أخذت تنمو وتتكاثر على تعاقب العصور حتى صارت علما مستقلا بذاته.

- مصادر المحاضرة:

- البلاغة العربية: تاريخها. مصادرها. مناهجها، د. علي عشري زايد.

- علم البيان: د. عبد العزيز عتيق.

- علوم البلاغة: أحمد مصطفى المراغي.